الأنفس، وإنما ذلك تعبير يصور حساسية مرهفة بإيذاء الرسول، وكأنما هو إيذاء لله، كما وإجاعة المؤمن كأنها إجاعة الله، أماذا من تعابير تصور فضاضة الفعل وهزازته في ميزان الله، وكأنها واصلة إلى الله! ثم ومن الرسول ﷺ يستطرد إلى المؤمنين:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾:

قد يكتسب المؤمن ذنباً بحق الله أو الخلق فيؤذى حداً أو تعزيراً كما حدد في شرعة الله، أو يعتدى عليه كما اعتدى، وأما أذاهم بغير ما اكتسبوا في براءَة متأكدة، أم جريمة غير ثابتة فإنها احتمال لحملين اثنين:

١ - ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا﴾ حيث الأذى من مؤمن إلى مؤمن تنادى في ظاهر الحال أنه اكتسب إثماً به يؤذى، فرية عملية وبهتة فعلية.

٢ - ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ في أصل الإيذاء شكيمة له وتحسساً منه، قد يخلِّف ما لا تُحمد عقباه، وهكذا تكون الأذى قولياً بقالة السوء عنهم، وإشاعة التهم ضدهم، ثم ويلاه الجمع بين قالة وفعلة مؤذية، وكما افتعلوها بأهل بيت الرسالة القدسية ومن نحى نحوهم من الكتلة الإيمانية[1].

قضية الإيمان هي الرحمة إلى أهله، وقضية اللاإيمان الشرس إيذاء إلهه، وبينهما عوان لا رحمة ولا أذىً هو من ضعفاء الإيمان، غير الملتزمين بقضايا الإيمان ولزاماته.

(١) نور الثقلين ٤: ٣٠٦ ح ٢٤١ عن المفضل بن عمر قال قال أبو عبد الله عليه السلام إذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الصدود لأوليائي فيقوم قوم ليس على وجوههم لحم فيقال: هؤلاء الذين آذوا المؤمنين ونصبوا لهم وعاندوهم وعنفوهم في دينهم ثم يؤمر بهم إلى جهنم و٢٤٢ في الخصال عن أبي جعفر عليه السلام قال: الناس رجلان مؤمن وجاهل فلا تؤذ المؤمن ولا تجهل على الجاهل فتكون مثله والقمي عن رسول الله ﷺ قال: من بهت مؤمناً أو مؤمنة أقيم في طينة خبال أو يخرج مما قال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩﴾:

كما تحرم أذى المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، كذلك يحرم التعرض للأذى بتهيئة أسبابها، وذلك في بُعديه بالنسبة للمؤمنات أشدُّ وأنكى، فعلى نساء المؤمنين إماءً وحرائر[1] ما دمن مؤمنات أن يدنين عليهن من جلابيبهن: الملابس الشاملة قرن ذيل، فلا يرسلنها مبسوطة تُرى زينهن من خلالها، فهنالك حجاب لرؤوسهن هي الخُمُر: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ ستراً للصدور والثَّديِّ الثغور، وهنا حجاب لسائر أبدانهن هي الجلابيب: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ وكما الباء في ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ تلمح بتبعض الحجاب في رؤوسهن فلا يشمل وجوههن، كذلك «من» في ﴿مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ والوجوه هي أقل تقدير من الخارج عن فرض حجابهن، ثم اليدان والرجلان وكما في متظافر الأحاديث.

«ذلك» الإدناء دون إرسال، ﴿أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ﴾ بالعفاف ﴿فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾ فالمرأة المكشوفة، المسترسلة المبتذلة تؤذى زَعم أنها من أهل التونُّس، فلتظهر العفيفة بمظاهر العفاف كيلا تؤذى، زعم الباطل بحقها.

إن أذى القالة فيهن ومن ثم متابعتهن إلى الفعلة فيهن من قبل الفساق وأضرابهم، هي من مخلفات عدم حجابهن كما يجب، إذ لا يُعرفن بالعفاف حيث لا ظاهرةَ له، فكما يفرض عليهن عفاف الباطن كيلا ينجذبن بجواذب من سراق الجنس، كذلك عليهن آياته الظاهرة من حجاب وسائر الملامح كيلا يخيَّل فيهن عدم العفاف.

فإذا تحجبت بكاملها ولكنها تغنَّجت وأبرزت حركات وقولات تدل على

(١) هنا روايات وردت في الدر المنثور أن هذا الفرض يخص الحرائر، فهل أن الإماء المؤمنات لا بأس في إيذائهن والتعرض للإيذاء؟ هذه خرافة طبقية قومية تجنب عنها ساحة الإسلام.

سخافتها فقد عُرفت بعدم العفاف، فلم ينفعها الحجاب - إذاً - إلّا هزءاً بكل حجاب، وهي أشر ممن لا تحتجب وليست عليها ملامح عدم العفاف إلّا عدم الحجاب، وخير منهما غير المحتجبة التي تلمح بعفافها قولة وفعلة وفي حركات وتصرفات، ولكنما الواجب على المؤمنة الجمع بين العفافين منعاً لإثارة الجنس واستثارته، فمهما عُرفت بالعفاف فلا يؤذيها الفساق، ففي تبرُّجها أو عدم الحجاب تأذي المؤمنين وتبذل المؤمنات!

وقد يبدو من ملامح آية الجلابيب - وكما تؤيده الروايات - إنها أولى آيات الحجاب، حيث تكتفي بـ«أدنى» أن يعرفن فلا يؤذين «كحكمة أولى هي أقوى الحِكَم لفرض الحجاب، ومن ثم آية النور ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ ... وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ... وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾...[1] تفرض حجاباً فوق الحجاب، وبصورة مطلقة تحلِّق على «أن يعرفن» أو لا يعرفن، أوذين أم لا يؤذين، حيث الحجاب الإسلامي على النساء تتبناه حِكَمُ عدة أولاها وأولاها ﴿أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾.

﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾:

تهديد شديد يعم المنافقين والذين في قلوبهم مرض، منهم كأنحسهم ومَن سواهم من المشركين أم ضعفاء الإيمان المستغلين، كذلك والمرجفون في المدينة أية رجفة ضد الطمأنينة الإسلامية.

لئن لم ينتهوا ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾: نحرضنك عليهم ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ فيها بعد ذلك التحريض ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ من الوقت، أو قليلاً منهم هم أقل إرجافاً وإرهافاً، ومن ذلك التحريض الحكمُ الصارم:

(١) سورة النور، الآية: ٣١.

﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾:

﴿مَّلْعُونِينَ﴾ في حساب الله إذ لعنهم الله و﴿مَّلْعُونِينَ﴾ بين المؤمنين بالله إذ عليهم طردتهم وعزلهم عن جوّ الإيمان كيلا يكدِّروه ويقذروه.

﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ﴾ و﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ فآخر الدواء الكي حين لا يكفي طردُهم بأسهم.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾:

سنة دائبة إلهية ﴿فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ مؤمنين وسواهم، طرداً وقتلاً للمرجفين ضد الرسل والرسالات الإلهية، وواجباً جماهيرياً للكتلة المؤمنة أن يطهروا الأجواء حسب المستطاع من المرجفين ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

وليست التقية في ظروفها تبديلاً لهذه السنة السنية، حيث التكليف مرفوع عندها، وإنما تطبَّق هذه السنة عند الاستطاعة حسب المستطاع.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾:

سؤال عن وقت الساعة تعنتاً لها ونكراناً، كأنها حين لا جواب عنه فلا حقيقة لها، والجواب الحاسم ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ ولا جواب سواه إلّا ترجي قربها ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ عل البداية هي خلق هذا الإنسان حيث السائلون هم من هذا النسل فلا يعرفون مدى قربها إلا بمعرفة البداية،

أم هي بداية خلق المكلفين قبل هذا الإنسان، فقربها يطمئننا أن الأكثر أياً كان لقد مضى، وعلى أية حال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾:

السعير نارٌ شديدة الحرارة والزبانية، وهي من مظاهر اللعنة الأخروية، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ اللعنة بمطلق الخلود الذي فيه خروج، أو الخلود المطلق الذي ليس فيه خروج، والخلود - أياً كان - يخص الكافرين، وأما سواهم ممن يستحق العذاب، فعذاب البرزخ، ثم الشفاعة في القيامة، ثم مس سقر دون خلود، اللهم إلا من هو كالكفار المعاندين، كما ومن الكفار من لا يخلد أو لا يعذب وهم القاصرون.

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾﴾:

﴿تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ﴾ عما كانت يوم الدنيا إلى حقائقها النحسة الكالحة، و«تقلب» حال بعد حال في سيئات الأحوال، و«تقلب» من جهة على النار كاللحم يشوى، وإلى سائر التقلبات السوء هناك حسب سوء التقلبات هنا جزاءً وفاقاً.

ثم ﴿يَٰلَيْتَنَآ﴾ التحسر الدائب عذاب فوق العذاب، كما:

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾﴾:

وهي مقالة الأتباع، حيث الكافرين يعمهم والمتبوعين وللكل خلود، مهما اختلف خلود عن خلود وهذه القيلة لهم حيلة كأنها لهم عاذرة عن كفرهم، أم مخففة عن عذابهم، وأما مضاعفة العذاب لمضلليهم فهو لا محالة واقع:

﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾:

مهما لا يستجابون ككل، فقد يضاعف لهم العذاب، وأخرى ﴿لِكُلٍّ

ضِعْفُ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ مهما اختلف ضعف عن ضعف، فضعف المضللين لضلالهم وإضلالهم، وضعف المضللين لضلالهم وتخاذلهم في اتباعهم!.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾:

هذه أذية خاصة فيها فرية وتهمة لمكان ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ﴾ مهما كانت مطلق الأذية محرمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾... [1] ولكن أذية الفرية هي ألعن وأنكى.

ولـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [2] فضلاً عن الرسل، فلا تبقى فرية على رسول إلّا مبرئة بما وعد الله، مهما طالت المدة أم قصرت، ومهما مضت على الفرية ردح فالمهم هو الوجاهة عند الله ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾.

ومما آذوا النبي ﷺ هي قصة الإفك، وقصة حليلة زيد، وقد برأه الله في اذاعة قرآنية خالدة، كما برأ موسى مما نسبوا إليه من فاحشة ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾:

القول السديد هو شديد السداد حيث يسدّ عنه تخلفه عن العقيدة فإنه نفاق، أم تخلفه عن الواقع فهو كذب، أم تخلفه عما يعنيه فهو لغو، فليُسدَّ عن أقوال المؤمنين كافة الثغرات والنوافذ إلى باطل، وهذا من مخلفات تقوى الله، إذ تشمل القول إلى العمل إلى الاعتقاد.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٧.
(٢) سورة الحج، الآية: ٣٨.

والقول السديد يصلح الأعمال، وهو ذريعة لغفر الذنوب، ثم القول السديد وصالح العمل هما طاعة الله الرسول، وهي الفوز العظيم.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾:

آية الأمانة هذه منقطعة النظير في عرض الأمانة على الكون كله فإباؤها عن حملها والإشفاق منها وأن الإنسان حملها ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ فما هي تلك الأمانة وما هو عرضها وحملها والإباء عن حملها؟

الأمانة - بوجه عام - هي كل ما يؤمن عليه ويُطمأَن به مالاً أو حالاً أو عملاً أمّا ذا من واجب الأداء إلى أهلها كما أؤتمنت وحيث وأنّى وكيفما، ولا تصدق الأمانة إلّا فيما قبلت طوعاً أو كرهاً فأداءً لها أم خيانة فيها، وأما التي لم تقبل حتى يؤمن عليها فتؤدى أو تخان، فلا تحمل اسم الأمانة مهما وجب قبولها أو لم يجب، وكما وهي مستحيلة بالنسبة للأمور التي ليست لتنفصل عن المؤتمن حتى يأتمن غيره فيها.

ثم المقبولة طوعاً كسائر الأمانات أو كرهاً كأمانة السماوات والأرض والجبال ومن ضمنها الإنسان، هي بين محمولة دون رد وبين مؤداة، فمن طبع الأمانة أداؤها لا حملها إلّا لأدائها، فمن حمَلها فقد خانها: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾[1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾[2] كشريطة من شروط إسلام التكليف، وبأحرى إيمانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾[3] ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾[4].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٣.
(٢) سورة النساء، الآية: ٥٨.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٧.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٨.

وقد تختلف الأمانات وجاه متقبليها في عرضها، فلا تُعرض أمانة العقل على من ليس يعقل، ولا أمانة الشعور على من ليس يشعر، ولا أية أمانة على ما ليس ليحملها، وهنا ﴿ٱلْأَمَانَةَ﴾ معروضة على الكون كله فكائنة كامنة في الكون كله، المعبر عنه هنا وفي سائر القرآن بـ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وتخصيص الجبال من زمرة غير العقلاء يعني مثالاً لأصلب كائن وأصلده، كما تخصيص الإنسان من زمرة العقلاء يعني أعقل كائن، فهذه الأمانة من الرحمة الرحمانية بعد الخلق كالهداية العامة ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1] ومن الهدى لكل شيء هدي التسبيح ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[2] وتجمعهما الولاية وكما في رواية.

إذاً فليست هي فقط - أمانة العقل إذ تخص العقلاء، ولا أمانة الشعور إذ تخص الدواب، ولا أية أمانة تخص كائناً دون سواه، فهي إذاً أمانة تعم كل كائن هي مخلوقة معه مفطورة فيه، خلقت مع الخلق كله وعرضت على الخلق كله فانقسم في هذا العرض العريض إلى من ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ فهي - إذاً - الولاية، شعور التسبيح بحمد الله وواقعه.

ولأنها أمانة فقد تحملها الكون كله كرهاً في تكوينه، إذ لا تسمى أمانة وجاهَ من لم يتقبلها، ثم ولا موقف لها أمانةً إلّا أداؤها أو خيانتها: ﴿فَأَبَيْنَ... وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ بعد تحملّها في كره التكوين فحمل الأمانة هو خيانتها، والإنسان هو رأس الزاوية في خيانة الأمانة ثم الجن ثم سائر المكلفين، فهو من هذه الناحية - ككلٍّ ومجموعة - في أسفل سافلين، ومن حيث السابقين والمقربين وأصحاب اليمين هو رأس الزاوية في أداء الأمانة

(١) سورة طه، الآية: ٥٠.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

سليمة فهو في أعلى عليين، حيث الرسالات الإلهية في الأصل ليست إلا في قبيل الإنسان. ولو أن حمل الأمانة يعني - فقط - تحملها، لم يكن للإباء عنها مجال لأي كائن، حيث العرض الرباني لها بجمعية الصفات «إنا عرضنا» ليس إلا لصالح الكائنات، فالتخلف عن قبولها تخلف عن إرادة الله، ولو كان بالإمكان لكان من العصيان، فقبولها طاعة، فكيف يعلَّل ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ﴾ إذاً بـ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، ومن ثم «ليعذب..» فهل أن مطاوعة الرب في تقبل الأمانة المعروضة ظلم وجهل يستتبعان العذاب؟!

إذاً فهي بُعدٌ ثانٍ من تكوين كل شيء وكينونته، لكلٍّ حسب مستواه ومستطاعه ووهبته دون زائد ولا ناقص، فهي لمن يعقل تكليف العقل قَدَره، ولمن يشعر تكليف الشعور قَدَره في حيوان أم نبات أم جماد: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[1].

إن أمانة التكليف بصيغة أخرى هي «الولاية»[2] ولاية الله في تسبيح دائب كما لسائر الكون، وسائر الولايات في درجاتها لكل كتلة كما تناسبها كولاية الرسل لسائر المكلفين وولاية الرسول والأئمة[3] في خاتمة

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

(٢) نور الثقلين ٤: ٣٠٩ ح ٢٥٨ في عيون أخبار الرضا بإسناده إلى الحسين بن خالد قال: سألت أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ...﴾ [الأحزاب: ٧٢] فقال: أمانة الولاية من ادعاها بغير حق كفر وفي معاني الأخبار ح ٢٦٠ مثله وفي ح ٢٦٧ بصائر الدرجات عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال الولاية أبين أن يحملنها كفراً وحملها الإنسان والإنسان الذي حملها أبو فلان أقول حملها كفراً هو خيانتها كما خانها أبو فلان.

(٣) المصدر ح ٢٦١ في أصول الكافي عن إسحاق بن عمار عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: هي ولاية أمير المؤمنين عليه السلام أقول إنه من باب الجري والتطبيق على بعض المصاديق فقبلها ولاية الرسول وقبلهما ولاية الله، والأخيرة هي العامة للكون كله.